الفصل الحادي عشر

أحلام اليقظة

يندر فى المراهقين من لا تنتابه أحلام اليقظة ، يبنى فيها قصوراً فى الخيال ويحقق بها الرغبات والأمانى والآمال .. ولكن «الإغراق» فى هذه الأحلام لا يشاهد إلا فى المراهقة المحرومة ، العاطلة عن إشباع حاجات المراهق ، القاصرة فى اتجاهاتها العملية اليدوية أو فى الاهتمامات الاجتماعية والإنسانية . لذلك نرى الإسراف فى أحلام اليقظة والإسراف فى النشاط الجنسى الذاتى يتمشيان جنباً إلى جنب ، كلاهما مظهر للانطوائية الشديدة ، والارتداد إلى النفس والاستغراق فى المشكلات الشخصية التى لا تجد حلا .

والواقع أن دراسة أحلام اليقظة للمراهق هى بمثابة دراسة لحاجاته غير المشبعة ولنوع الضغوط التى تمليها عليه بيئاته الاجتماعية . . فالمثل العامى الذى يقول « الجوعان يحلم بسوق العيش » يصدق أكثر ما يصدق على أحلام اليقظة عند المراهقين !

وينطبق هذا المثل حرفيا على بعض فقراء المراهقين ممن لم يتوافر لهم الأكل الشهى . فيحدثنا أحدهم عن تصوره لنفسه وقد أصبح طبيباً تدر

عيادته ربحاً وفيرا «ويمكنني شراء مالذ وطاب من المأكولات وأنواع الفاكهة التي لا أعرف اسمها ، مما كنت أشاهده في محلات الفاكهة ..»!

وكان المراهق هذا يشكو فقر الدم ، ويضايقه شحوب لونه وضعفه البدني ، فتراه يتصور — في بعض أحلام يقظته — أنه أصبح ضابطا وترقى بسرعة إلى رتبة اليوزباشي لبطولته وشجاعته ، وبذلك يتمكن من شراء الغذاء الصحي ، فتزول عن وجهه صفرته ، وتتوافر له القوة البدنية ، ومن ثم يتزوج بأجمل الفتيات . ويحلم في مرة أخرى بأنه أصبح بطلا الملاكمة ، وكما يحدث فيما يشاهد في أفلام السينما ، تراه فتاة جميلة وهو يصرع خصمه ، فتذهب لاحتضانه بعد المباراة ، وتتأبط ذراعه إلى والدها لتزويجها منه .. وقد ظل هذا المراهق يرتدي سترة واحدة لسبع سنوات ، فكان يحلم أيضاً بأنه يسير بسترة جديدة في شوارع القاهرة ، فيثير إعجاب إحدى الفتيات التي تحادثه ، ثم تتزوجه ، حيث يسكنان في إحدى الفيلات المطلة على النيل ! . . وهكذا دارت أحلام هذا المراهق حول موضوعات حرمانه ، المأكل الشهي ، والملابس الجديدة ، والقوة البدنية ، والمرأة ، والمركز المرموق ، والغنى .

ومراهق آخر ضعيف البنية كثير الإصابة بالأمراض ، يحلم بأنه قد أصبح بطلا قوي الجسم ، يتطوع في إحدى المرات لإنقاذ فتاة غريقة ، فتصفق له الجماهير ، وتقع الفتاة في حبه وتتزوجه !

وهذا أحد المراهقين وكان يعاني إحساسات النقص بسبب قصر قامته

وضآلة جسمه وتخلفه فى بعض مظاهر الرجولة مثل وضوح الشارب ، يتصور نفسه يقوم بأعمال عظيمة يتتبعه فيها الجمهور بالإعجاب الشديد ! ومثله آخر كان يضايقه تردده وجبنه فكان يحلم فى يقظته أنه أصبح ضابطاً عظيماً أو بطلا جسوراً !

وغير هؤلاء كثيرون ، ممن تفصح أحلام يقظتهم عن مشكلاتهم الخاصة وعن نظرتهم إلى أنفسهم ، ومايرونه عيبا فيهم أو حرماناً فى حياتهم . . . وجدير بالذكر أن أحلام اليقظة للمراهقين المصريين التقت أغلبها عند موضوعين ، هما المرأة والمركز الموموق ، مما يلقى ضوءا على اهتمامين أساسيين فى المراهقة ، ومما يكشف الستار فى الوقت نفسه عن قصور مجتمعات المراهقين عن إرواء ظمئهم للعلاقات العاطفية من جانب وعن إشعارهم بالأهمية والاعتبار فى هذه المجتمعات من جانب آخر .

وترتبط أحلام اليقظة فى صورتها التفصيلية بالنماذج الثقافية السائدة فى بيئات المراهق ، فنرى أن جانبا من أحلام أحد المراهقين كان يدور حول « البطولة فى قهر الأعداء من السائلات الأخرى » ، والسر فى ذلك أن قريته كانت منقسمة إلى أشياع للطرق الدينية المختلفة ، كما كان يسودها التنافس بين أسر العرب والفلاحين .

كذلك كانت أحلام مراهق آخر تعكس بعض صور المجتمع المصرى فى

إحدى فتراته ، فقد تأثر بالقصص التى كانت تروى عن الملك السابق ، فيقول « تخيلت نفسى من رجال القصر أعمل موجهاً فكريا لهذه الأسراب من فتياته ، وأجعل لى من بينهن محظيات » كما يقول أيضاً « تصورت نفسى أستاذا للأدب العربى بكلية الآداب ، تمنح لى (البكوية) وأرسم لنفسى صورة بالفحم تمثلنى واقفاً على منصة فى مدرج يتسع بالطلبة . . . وفى مرة تخيلت أنى ألفت الوزارة وأطحت (بفلان) باشا ، وألقيت خطاب العرش بدلا منه فى البرلمان » !

وكان لثقافة المراهقين فى المعاهد الدينية أثرها كذلك فى اتجاه أحلام اليقظة لبعضهم نحو مركز الخطيب المفوه ، أو الشاعر أو الكاتب الشهير أو المصلح الاجتماعى الجليل الشأن .

وفى حالات كثيرة ، كان المراهق يطابق بين أحلام يقظته وأشخاص أبطال الروايات والقصص التى يشاهدها أو يقرؤها . وقد لذ لبعض المراهقين الذين يحسون الحرمان الشديد ، أن يطابقوا بين أنفسهم وبين « الضحية » فى هذه القصص والروايات فكشفت أحلام يقظتهم عن اتجاهاتهم السلبية المرضية فى بعض الأحيان .

ومما هو جدير بالملاحظة كذلك أن أحلام اليقظة فى حالات المراهقة من الشكل الأول (وهو الذى تتصف فيه المراهقة بالتوافق والإشباع النسبى كانت متمشية إلى حد ما مع إمكانيات المراهق وقدراته ، كما كان المراهق

يشعر بالتقارب بين أحلامه وإمكانياته . . . فكانت أحلام أحد المراهقين — مثلا — « بالمجد الشامخ » تتفق — إلى حد ما — مع إمكانياته من تفوق دراسي ومن مقدرته الخطابية البارعة ، بالإضافة إلى مركز أسرته الممتاز ، مما يسمح له بأن يطمح إلى مجد كبير . كما كان ولع مراهق آخر بالمغامرة والإقبال على الفروسية متمشيا مع حلمه بأن يصبح ضابطا كبيرا بالجيش . . . على أن أحلام اليقظة عند المغرقين في أحلام اليقظة لا تدخل عادة ضمن هذا النطاق ، بل إنها لا تتفق مع الإمكانيات الظاهرة للمراهق ، وتصور عكس الحال الذي هو عليه ، أي أنها الصورة المضادة — تقريبا — للواقع الفعلي الذي يعيش فيه المراهق .

هذا ، وأحلام اليقظة ظاهرة معروفة في جميع مراحل العمر ، وإن اتخذت صورة بارزة في المراهقة . . والقليل منها نافع ، بل لا بد منه ، للتخفف من مواقف الحياة اليومية المشكلة . والكثير منها ينبيء عن اضطراب في الشخصية وعن عجز صاحبها البالغ في التكيف مع واقعه الفعلي .